مقـام المرأة

في مصر القديمة

للدكتور باهور لبيب
المدرس بجامعة فؤاد الاول سابقاً

مقام المرأة من الوجهة الاجتماعية

تعدد الزوجات لم يكن معروفاً عند قدماء المصريين الا انهُ كان للرجل الموسر الحق في أن يضم إليه كثيرات من المحظيات والجواري كما انهُ كان للملك الحق في ان يتخذ الى جانب زوجته الشرعية (الملكة) زوجات أخريات لا حقَّ لهنَّ في وراثة العرش

وكانت الزوجة تعرف باللغة المصرية القديمة بما معناه « زوجته المحبوبة وربة الدار » . فكانت هي التي تشرف على ادارة المنزل وتربية الأطفال بجانب اهتمامها بزوجها

وبجانب هذا الشأن الذي لها في حياة الأسرة وكيانها فقد كانت ذات شأن في الحياة العامة كما سنرى ذلك فيما بعد

واهتمامها بالمنزل وبأسرتها لم يكن عائقاً لها عن التزين والتأنق فكانت تخضب أناملها بديها وأصابع قدميها وتكحل عينيها وتلوّن شفتيها باللون الاحمر كما تفعل المرأة الحديثة في أيامنا ولكن بطريقة تختلف عن الطريقة العصرية لانها كانت تستعمل الفرشاة عند التلوين (راجع الصورة على الصفحة المقابلة) وتضع على وجهها مختلف المساحيق التي تظهرها بالمظهر الفتان وكانت تجعد شعرها بحسب العادة الجارية في عصرها وكانت تزين صدرها وعنقها ويديها بالحلى والجواهر

والادب المصري مملوء بالعبارات التي تبين حب الابن لامه والابنة لامها وكذلك مملوء بالعبارات التي تبين علاقة الرجل بامرأته فكان يقبلها ويداعبها ويعانقها ويعاملها بالحسنى ولا يهجرها وكذلك يتيح لنا هذا الادب شيئاً كثيراً عن خواطر المرأة والرجل وما بينهما من صلات الصداقة والحب

وعلى سبيل المثال أورد القصة الآتية وهي مكتوبة على ورقة بردية محفوظة بمتحف لندن وهي أن رجلاً مرض بعد وفاة زوجته فاشار أحد السحرة في ذلك الخصوص أن يكتب

خطاباً الى روح زوجته فكتب اليها خطاباً وذهب به الى مقبرتها في احد الاعياد وقرأه بصوت عالٍ ثم ربطهُ بتمثالها حتى يصل اليها وقد جاء فيه: «أي ذنب جنيتهُ نحوكِ أيتها الحبيبة حتى أقع فيما أنا فيهِ من بؤس وشقاء؟ أي ذنب جنيته أيتها الحبيبة حتى تساعدي أرواح الشر ضدي وماذا فعلت معكِ من ساعة رفقنا الى اليوم. تزوجتكِ وقد كنت رجلاً يشغل منصباً صغيراً؟ وتدرَّجت بعدها من منصب الى منصب وما خال بخاطري يوماً أن أهجرك وما فكرت أبداً في ان أجلب الحزن الى قلبكِ. ذلك كان شعوري يوم كنت صغيراً وما تحولت عنهُ لما صرت كبيراً في خدمة فرعون. فلم اهجركِ بل حافظت عليكِ في السراء والضراء... وعندما مرضتِ ألم أحضر لكِ كبير الاطباء فبذل كل شيء في سبيل شفائكِ... أني لا اعلم يوماً قصرت في واجبي نحوكِ»

وقد كان للمرأة المصرية القديمة حظ موفور في الثقافة مما يسترعي النظر. فالسيدات المصريات كنَّ مولعات بالعلوم والفنون. فعلى سبيل المثال يحدثنا موظف يدعى «خنوم ردى» بأنهُ كان اميناً لمكتبة سيدة عظيمة القدر تدعى «نفروكابيت» ثم يقول ما ترجمته: «هذه السيدة عينتني في دندرة مشرفاً على خزائن الكتب الخاصة بأمها تلك السيدة التي كانت مولعة بالعلوم والفنون» ونجد بعد ذلك ان هذا الموظف ابتدأ يصف ما قام به من اعمال عظيمة في اثناء ادارته لتلك المكتبة فيقول: — «انا قد زدت عدد مجاميع الكتب الموجودة بها واستحضرت لها كثيراً من المؤلفات الثمينة حتى انها لم تعد في حاجة الى توسيع اكثر من ذلك على ما أعلم ورتبت هذه المكتبة ترتيباً حسناً لم يحدث مثله من قبل. وقد ربطت ما كان مفككاً (يعني انهُ ربط لفات البردي المحلولة).»

***

واما من الوجهة المدنية فقد كان للمرأة كامل حقوقها في التصرف في اموالها والتصرف في عقارها دون الرجوع الى زوجها او ابنها او فرد آخر من عائلتها فعلى سبيل المثال تصرفت أم «الموظف آمنمس» بكامل حريتها في ملكها بالوصية والهبة

مقام المرأة من الوجهة السياسية

وكان نظام الحكم المصري يبيح للمرأة حق تولي عرش مصر فلم تقعدها الأنوثة عن وكوب الصعاب فشاركت الرجل في هذا الجهاد وتاريخ مصر القديم حافل بعدد وافر من شهيرات النساء اللواتي جلسن على عرش مصر . ففي الدولة القديمة نجد الملكة نيتوكريس (خنت كاوس ؟) وفي الوسطى « سبك نفرورع » وفي الحديثة الملكة حاتشبسوت وفي عهد البطالسة الملكة كليوباترة (الاخيرة وأعني كليوباترة آخر من تولى عرش البطالسة وقد أخفقت في سياستها وبعد وفاتها سنة ٣٠ ق. م دخلت مصر تحت حكم اغسطس قيصر روما) . وسأقصر في مقال اليوم الكلام على الملكة حاتشبسوت التي تعد من اعظم الملكات اللواتي عرفهن التاريخ القديم وهي التي حكمت مصر (من سنة ١٤٩٣ ق. م الى سنة ١٤٧٩ ق . م) وتركت لنا آثاراً كثيرة كما انهُ وصلنا شيء كثير عن بعض موظفي هذه الملكة

وتمتاز عهدها بأنهُ عهد سلام ووئام مع الممالك المجاورة لمصر فلذلك تمكنت من ان توجه همتها الى اعمال السلام بالرغم من المنازعات الداخلية التي نشأت من المنازعات العائلية بسبب التنازع على العرش وبسبب زيادة نفوذ كبار كهنة آمون . وقد ساعدها على تنفيذ الاعمال السلمية حروب والدها تحتمس الاول وكذلك المعارك التي خاض غمارها اخوها وزوجها الاول تحتمس الثاني وهي المعارك التي ثبتت اركان الامبراطورية . هذا من جهة . ومن جهة أخرى صغر سن تحتمس الثالث ابن زوجها الاول تحتمس الثاني من زوجة ثانية . فكل هذه الظروف ساعدتها على ان تكون على جانب عظيم من القوة والدهاء

وقد استغلت هذه الملكة مناجم شبه جزيرة سينا سواء في سربوت الخادم او في وادي المغارة فأرسلت هناك البعثات تلو البعثات للحصول على مسحوق معدن النحاس والمواد الاولية اللازمة لعمل الزجاج

فقد وجدنا كثيراً من الزجاج في هذه الجهة حاملا اسم هذه الملكة وطبيعي ان صناعته استلزمت وقوداً كثيرة مما يدل على استعمال الكثير من الخشب مما يجعلنا نرجح غناء هذا الاقليم بالاشجار ولم يكن صحراء جرداء كما هو مشاهد الآن

كذلك اهتمت الملكة حاتشبسوت بالمعابد فأكثرت من تشييدها ولعلَّ اهم ما شيدته معبدها المعروف « بمعبد الدير البحري » وقد سمي بهذا الاسم حتى لا يختلط علينا في العصر المسيحي مع دير آخر بني في الجهة القبلية واقصد به « دير المدينة » ويتكوَّن معبد الدير البحري من ثلاث شرفات مدرجة والشرفة العليا تنتهي بصف من الحجرات وقد بني هذا

المعبد حوالي السنة الثامنة من حكم الملكة حاتشبسوت . ومن حسن الحظ انه وصلنا اسم المهندس الذي شيده وهو « سن إن موت »

اما الذي كلف الاشراف على صنع ابوابه التي من البرنز المطعم بخليط من الذهب والفضة فهو احد رؤساء المالية الذي يدعى « نحوتي »

ومن المناظر والنصوص التي وصلتنا من هذا المعبد والتي لها منزلة تاريخية فيما يخص عصر هذه الملكة ، تلك التي توضح لنا طريقة ولادة الملكة حاتشبسوت بناء على وحي الهي من الاله آمون (إله الدولة في ذلك الحين) وما يثبت حق الملكة الشرعي في الاستيلاء على عرش مصر

وقد أرسلت الملكة حاتشبسوت بعثة تجارية الى بلاد بنت (الصومال) ففي السنة التاسعة لحكمها نجدها ترسل اسطولاً مكوّناً من خمس سفينة فيقلع من المياه المصرية قاصداً الصومال متبعاً نهر النيل شمالاً حتى يصل شرقي الدلتا ومن شرقي الدلتا نجد الأسطول يعبر قناة وادي طميلات (قرب اقليم السويس) الى البحر الاحمر [1]

ثم بعد وصول الاسطول عائداً الى بلاد بنت يعود الى مصر محملاً بخيرات بلاد الصومال وتستقبل الملكة حاتشبسوت قائده ورجاله في الكرنك بطيبة وتقدم للمعبود آمون بعض واردات الصومال

ومن اهم ما شيدته هذه الملكة ايضاً من الآثار ما اضافته الى معبد آمون بالكرنك واقامتها مسلتين عظيمتين فيه

***

واخيراً نعلم ان ثروة المملكة المصرية في ذلك الحين بلغت درجة من الرخاء عظيمة وكانت جزية المستعمرات تصل الى مصر بانتظام. بل من ظريف ما قالته هي عن عصرها « انها تكيل المعادن النفيسة كالحبوب اي بالمكاييل الكبيرة »

فالمرأة ساهمت تقريباً في كل ناحية من نواحي الحياة في مصر القديمة فكان فيها ملكات وكذلك كاهنات في المعابد وطبيبات وكاتبات وموظفات وربات منزل ومغنيات

---

(١) يلاحظ ان قدماء المصريين عدوا البحر المتوسط والبحر الاحمر كلاهما عن طريق انهار فروع النيل الشرقية بعد الدلتا ويرجع تاريخه الى ما قبل عصر هذه الملكة أي الى عهد الملك سوسرت الثالث — راجع لمحة عامة عن فروع النيل السبعة في كتاب حفريات صاحب السمو الامير عمر طوسون « تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية »